المحاضرة رقم 06

الأدب في عهد الدولة الصنهاجية الزيرية الأولى

1. لمحة عامة عن الدولة

بسطت الدولة الفاطمية نفوذها فاستولت على تيهرت والقيروان، وتطلعت إلى مصر ففتحتها، من ثم قرر المعز لدين الله الانتقال إليها سنة 361 للهجرة، فولى الأمير بلكين بن زيري الصنهاجي إمارة إفريقيا والمغرب عامة، ما عدا صقلية اعترافا بجميل قبيلة صنهاجة البربرية التي أخلصت له الوفاء والدفاع عن الفاطميين.

وضع بلكين بن زيري يده على عدة مدن جزائرية، في المغرب الأوسط، وبنى الزيريون مدينة آشير واتخذوها عاصمة لهم، كان نظام الحكم ملكيا وراثيا يساعد الحكام فيه ولاة على تسيير شؤون الإمارة في كل من المسيلة وأشير وتلمسان ووهران وميلة وسطيف.

لما توفي بلكين بن زيري سنة 373 للهجرة خلفه ابنه أبو الفتح المنصور بن بلكين الذي توفي 386 للهجرة وخلفه ابنه أبو قتادة باديس بن المنصور، والذي عهد لعمه حماد بن بلكين ولايتي المسيلة وأشير وهي مناطق متنازع عنها بين الزيرين والقبائل زناتة واستطاع أن يقضي على زناتة هناك فشرع في بناء مدينة القلعة سنة 389 للهجرة قرب مدينة آشير وشمال شرقي مدينة المسيلة. وأسس إمارة الحماديين. وساءت العلاقة بين باديس بن منصور وعمه حماد حيث خشي باديس على ملكه من توسع عمه، وقامت بينهما حروب، وكان النصر لباديس لولا أن بغثه الموت سنة 406 للهجرة وخلفه ابنه المعز بن باديس، الذي تصالح مع عمه حماد واعترف له بولاية الجزائر التي أسس فيها دولته الحمادية.

لقد تضررت الإمارة الزيرية على يد قبائل بني هلال القادمة من مصر بتحريض من الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، وذلك بسبب تخلي ابن باديس عن الولاية للفاطميين ومجاورته للخلافة العباسية محاولة منه تهدئة الرأي العامة الذين انتفضوا ضد الدولة الفاطمية في القيروان سنة 435 للهجرة، فما كان من الخليفة الفاطمي إلا أن يسلط بنو هلال وبنو سليم على الزيرين وأخذوا منهم القيروان والمهدية، وتمكن الموحدون من إنهاء التواجد الزيري بالمنطقة.

حقق الزيريون ازدهار اقتصاديا مشهودا ونشطت الحركة التجارية بين مختلف مناطق المغرب الإسلامي والأندلس، وقد كانت موانئ جيجل والجزائر والمهدية من أهم المراكز التجارية الزيرية.

كما اشتهرت بالعمران حيث شيدوا المدن وأحاطوها بالحصون والأسوار وبنو القصور والمساجد، وتميت الحياة الاجتماعية بالرفاهية والتطور والتنوع، لما عرفته البلاد من رخاء اقتصادي جعلتها لا تبالغ في فرض الضرائب على الأهالي. وكانت مدن أشير والمنصورة والقيروان محط أنظار فئات اجتماعية من التجار والصناع والفقهاء والأدباء.

2. الحياة الأدبية

يقول محمد الطمار عن الأدب في عهد الدولة الصنهاجية: "رزق الله في العهد (الصنهاجي) ملوكا عنوا بالعلم وأهله، فنهضت الثقافة على يدهم نهضة كبيرة". وقد اشتهر عديد الشعراء والأدباء في ظل الدولة الصنهاجية، لكنه للأسف ضاع أغلبه في ظل الصراعات السياسية الحاصلة في المغرب الإسلامي، فلم يجمع هذا التراث. ومن أبرز الأعلام الأدبية في الدولة الصنهاجية الزيرية الأولى، نجد:

1. عبد الكريم النهشلي المسيلي (ت 405 هـ)

قال عنه ابن رشيق : " كان عبد الكريم النهشليّ عالما في اللغة عارفا بأيّام العرب و أشعارهم، كاتبا مترسّلا و أديبا ناقدا قديرا و شاعرا محسنا، قيل يجيد القصائد الطوال و لا يكاد يصنع مقطوعا. و لكن لعلّه لم يجاوز في شعره نظم خمس قطع".

أبو محمّد عبد الكريم بن إبراهيم النهشليّ، ولد في المسيلة (المحمّدية) ونشأ فيها. في سنة 345 ه انتقل عبد الكريم النهشلي إلى القيروان، في أيام المعزّ لدين الله الفاطميّ، ولقي فيها الشاعر ابن هاني والشاعر عليّ بن الأياديّ وغيرهما. وبعد تحول الحكم لبني زيري كان كاتبا لهم في ديوان الرسائل ثمّ نال عندهم حظوة وصحبهم في حروبهم في المغرب الأدنى والمغرب الأوسط، وكان ينادمهم أيضا. وقد صحب منهم المنصور بن بلكين386 ه) وابنه باديس406 ه، توفي في المهدية وقيل في القيروان.

ومما وصلنا من أثراه، كتاب الممتع في صناعة الشعر، الذي ألفه في الشعر وأحواله وفنونه، وقد نقل ابن رشيق جملة من آرائه في كتابه العمدة. قال الشعر النهشلي في أغراض الشعر المعروفة كالوصف والمدح والرثاء والحنين، ومن شعر هذه المقطوعة التي يمدح فيها المنصور بن بلكين وابنه باديس، يقول:

يشكو هواك إلى الدموع متيم === لم يبق فيه للعزاء نسيِسُ

لو لا الدموع تحرقت من شوقه === يوم الوداع قبابكم والعيسُ

دَرَكُ الزمان وحبّك ابن مالكٍ === في الصدر لا خَلَقٌ ولا مدروسُ

فكأنه ما شاده المنصور === رُتَبِ العلى واختاره باديسُ

وقال في الوصف:

هَنَتْكَ أميرَ الجود خيرُ هديةٍ === تَقَدَّمَها الإيمانُ واليُمنُ والفخرُ

بيومٍ تسامى فيه وردٌ مسوَّمٌ === وأشقر يعْبُوبٌ وسابحةٌ حجرُ

ودهمٌ كأنَّ اللّيلَ ألقى رداءَهُ === عليها فمرْفَعُ النواحي مُنْجرُ

والشاعر ناقد كما أسلفنا الذكر، وبه تأثر ابن رشيق القيرواني.

2. ابن الربيب التاهرتي:

و أبو عليّ الحسن بن محمد بن الربيب التميميّ القيروانيّ، أصله من تاهرت ومولده نحو سنة 380 للهجرة . نشأ ابن الربيب في القيروان وطلب العلم فيها، وقد عني به محمّد بن جعفر القزّاز القيروانيّ عناية صحيحة فبلغ به نهاية الأدب (التأديب: التعليم) ونهاية علم الخبر (التاريخ) و النسب (أنساب القبائل) وتولّى ابن الربيب القضاء في تاهرت حينا فصار يعرف بالقاضي التاهرتيّ أيضا.

صحب ابن الربيب بني أبي العرب فنال بهم وجاهة ومكانة: سئل عبد الكريم النهشليّ يوما عن أشعر أهل بلده فقال: أنا ثمّ ابن الربيب. و كانت وفاة ابن الربيب في القيروان، سنة 430 للهجرة. كان ابن الربيب القيروانيّ لغويا نحويا و عارفا بأنساب الناس حتّى اكتسب لقب «النسابة الإفريقيّ» . وكان أيضا أديبا ناثرا وشاعرا مجيدا قويّ الكلام يقول في المدح والرثاء، و ربّما تكلّف في النظم. ثمّ هو مصنّف له كتاب في النسب.

كتب ابن الربيب التاهرتيّ إلى أبي المغيرة عبد الوهّاب بن حزم رسالة يذكر له فيها فضل أهل الأندلس واتّساع الثقافة والحضارة في بلادهم وهم مع ذلك مقصّرون في تخليد آثار علمائهم و في تدوين فضائل بلادهم. قال: ". . . فكّرت في بلادكم إذ كانت قرارة كلّ فضل و منهل كلّ خير ونبل و مصدر كلّ طرفة و مورد كلّ تحفة. . . إن بارت تجارة فإليها تجلب، و إن كسدت بضاعة ففيها تنفق، مع كثرة علمائها ووفرة أدبائها و جلالة ملوكها ومحبّتهم للعلم و أهله. . .ثمّ هم مع ذلك في غاية التقصير و نهاية التفريط. . . فعلماؤكم مع استظهارهم على العلوم كلّ امرئ منهم قائم في ظلّه لا يبرح، و راتب على كعبه لا يتزحزح. يخاف إن صنّف أن يعنّف، وإن ألّف أن يخالف ولا يؤالف. لم يتعب أحد منهم نفسا في جمع فضائل أهل بلده، ولم يستعمل خاطره في مفاخر ملوكه، ولا بلّ قلما بمناقب كتّابه ووزرائه، ولا سوّد قرطاسا بمحاسن قضاته وعلمائه...."

ضاع شعره ولم يصلنا منه إلا النتف، ومنها قوله من قصيدة يمدح بها محمّد بن أبي العرب:

و لمّا التقى الجمعان و استمطر الأسى=== مع منّا تمطر الدّمع و الدّما

بدا مأتم للبين غنّى به الهوى=== بشجو، وحنّ الشّوق فيه فأرزما

تصدّت فأشجت، ثمّ صدّت فأسلمت=== ضميرك للبلوى عقيلة أسلما

وقد شهد له ابن رشيق الذي نقل بعض شعره بالحذق والقوة وجزالة اللفظ واستقامة المعنى.

3. .ابن قاضي ميلة:

تقع ميلة فى الشمال الغربى لقسنطينية والجنوب الشرقى من بجاية، وبها نشأ عبد الله بن محمد التنوخى فى بيت علم إذ كان أبوه قاضيها، ولذلك اشتهر باسم ابن قاضى ميلة، ويقول ابن رشيق إنه صحب أباه إلى جزيرة صقلية، فاتصل عن طريقه بواليها ثقة الدولة 388 هـ وكان حسن السيرة، ضبط صقلية وساس رعيتها سياسة عادلة حببته إليها، ودوّخ الروم واستقامت له فيها الأمور، وكان كريما كرما فياضا فقصده كثيرون من كل فجّ، فأكرمهم وفى مقدمتهم قاضى ميلة. وكان ابنه عبد الله شاعرا محسنا، فمدحه بقصيدة فائية بارعة، فقرب منزلته ومنزلة أبيه وأجزل صلته، ويبدو أنهما لم يمكثا طويلا بصقلية. وأشاد بابن قاضى ميلة من ترجموا له، فابن رشيق يقول فيه: " :شاعر لسن مقتدر يؤثر الاستعارة ويسلك طريق ابن أبى ربيعة وأصحابه فى نظم الأقوال والحكايات، وله فى الشعر قدم سابقة ومجال متسع، وربما بلغ فى الإغراق والتعمق إلى فوق الواجب، وهو لهج بذلك طالب له" .ويقول ابن بسام فيه : "ضرب فى الأدب بأعلى قدح وافترّ عنه على أوضح صبح ".

له قصيدة الفائية المشهورة التي قال عنها ابن خلكان: "وهي قصيدة بديعة لا توجد بكاملها في أيدي الناس، ولقد ظفرت بها في ظهر كتاب ولم يكن عندي منها سوى البعض، ولا سمعت أحدا يروي منها إلا ذلك القدر، فأحببت إثباتها لحسنها وغرابتها".

يقول ابن قاضي ميلة في مقدمة قصيدته:

يذيل الهوى دمعي وقلبي المُعنّفُ === وتجني جفوني الوجد وهو المكلفُ

وإّني ليدعوني إلى ما شنفتهُ === وفارقت مغناه الأغنُّ المشنّفُ

وأحورُ ساجي الطرف أما وشاحهُ === فصفر وأما وقفه فموقِّفُ

يطيب أجاج الماء من محو أرضه === يحي يندي ريحه وهو حرجفُ

وهذه القصيدة نظمها الشاعر في مدح ثقة الدولة وضمنها حواره القصصي مع المرأة المتغزل بها تعد في أسلوبها الجديد والقصصي درة من درر الأدب والشعر في هذا العصر.

5. علي بن أبي الرجال التاهرتي: يكنى أبا الحسن، وهو كاتب وشاعر ومنجم وعالم في الرياضيات، ولد بتيهرت وتربى في القيروان، وفيها تولى رئاسة ديوان الإنشاء في عهد الأمير باديس بن زيري الصنهاجي، الذي جعله مربيا ومعلما لابنه المعز، وبعد تولي المعز الخلافة جعله وزيرا، وكانت مكانته عالية عنده، ونفوذه عظيم فتقرب منه الأدباء والعلماء، وكان ابن أبي الرجال شاعرا لطيف الوجدان جيد الأسلوب وصادق العاطفة، قال فيه ابن رشيق: "" رجل الخطب، وفارس الكتب، أبو الحسن علي بن أبي الرّجال الكاتب، زعيم الكرم، وواحد الفهم، الذي نال الرئاسة، وحاز السيّاسة، وانفرد بالبسط والقبض، واتّحد في الابرام والنّقض، عن سعي مشكور، وفضل مشهور، وعلم بالموارد والمصادر، ونظر في الأوائل والأواخر، وتتّبع لآثار من سلف، من أهل القدر والشرف، وتقلّب في مجالس الحكم،

وبين ذوي الأقدار والهمم إلى أن صار نسيج وحده، وقريع دهره، غير مدافع ذلك، ولا منازع فيه ."...

وزاد على هذه الخصال: "سلامة طبع واندفاعه، وقرب لفظ واتّساعه، ورقّة معان وإرهافها، وظهورها مع ذلك وانكشافها، مع لطف مواقعها من القلوب، وسرعة تأثيرها في النّفوس ". وابن أبي الرّجال أديب وشاعر عظيم، أعجب ابن رشيق بشعره وافتتن بأدبه، فقلّما خلا باب من أبواب كتابه من شعر له اختاره فيما يناسب هذا الباب، أو قاله هو يهديه إليه بالمناسبة . فمن ذلك تمثّله، فيمن صنع الشّعر فصاحة ولسانا، وافتخارا بنسبه وحسبه، بقول أبي الحسن:

وجدت طريقَ البأس أسهلَ مسلكا === وأجدى بنجح من طريق المطامع

فلستُ بمطر ما حييتُ أخا ندى === ولا أنا في عرض البخيل بواقع

ويقول:

باكر الراح ودع عنك العدل=== واسع في الصحة من قبل العلل

واغتنم لذة يوم زائل === فالمنايا ضاحكات بالأمل

ما ترى الساقي كشمس طلعت === تحمل المريخ في برج الحمل

مائسا كالغصن في دعص نقا === فاتن المقلة زينت بالكحل

واشتهر ابن أبي الرّجال بمهارته في فروع التّنجيم، خاصّة وألّف في ذلك مصنّفات ترجمت إلى عدة لغات، في القرون الوسطى، وأشهر كتبه كتاب "البارع في التنجيم"، يقول في أوّله: "الحمد لله الواحد القهّار... هذا كتاب جمعت فيه معاني علم النجوم وغرائب أسرارها واخترته من كثير من كتب علمائها; وأضفت إليه ما أنتجته فكرتي وأتت عليه تجربتي"

4. ابن رشيق القيرواني المسيلي:

أبو علي الحسن بن رشيق المعروف بالقيرواني 385 هـ وقيل 390 هـ، كان أحد الأفاضل البلغاء،يقال أنه ولد بالمسيلة وتعلم فيها قليلا، ثم ارتحل إلى القيروان سنة 406هـ وأبوه مملوك رومي من موالي الأزد. وكان أبوه يعمل في المحمدية صائغا، فعلمه أبوه صنعته، وهناك تعلم ابن رشيق الأدب، وفيها قال الشعر، وأراد التزود منه وملاقاة أهله، فرحل إلى

القيروان واشتهر بها ومدح صاحبها واتصل بخدمته، ولم يزل بها إلى أن هاجم العرب القيروان وقتلوا أهلها وأخربوها، فانتقل إلى جزيرة صقلية، واقام بمازر إلى أن توفي سنة 456هـ .

كان يميل إلى الأدب مفضّلاً أياه على صياغة الذهب (حرفة أبيه) . فقد بدأ في نظم الشعر قبل أن يبلغ الحلم، ثم غادر مدينته إلى القيروان عام 406هـ، وكانت القيروان في ذلك الوقت عاصمة لدولة بني زيري الصنهاجيين، وتعج بالعلماء والأدباء، فدرس ابن رشيق النحو والشعر واللغة والعروض والأدب والنقد والبلاغة على عدد من نوابغ عصره، من أمثال أبي عبد الله محمد بن جعفر القزاز وأبي محمد عبد العزيز بن أبي سهل الخشني الضرير وأبي إسحاق الحصري القيرواني .

له كتب عدة منها :كتاب العمدة في معرفة صناعة الشعر ونقده وعيوبه، وقراضة الذهب في نقد أشعار العرب، وأنموذج الزمان في شعراء القيروان، كما خلف لنا ديوانا شعريا، وكان شعره أقرب إلى شعر العلماء والكتاب، لذلك شهرته كناقد وعالم أكثر منها كشاعر، وتجدر الإشارة إلى أن كثير من الكتب والرسائل الناقد ضاعت .

مدح ابن رشيق حاكم القيروان المعز بن باديس بقصائد حازت إعجابه وكانت سببا في تقريبه له، ثم اتصل برئيس ديوان الإنشاء بالقيروان، أبي الحسن علي بن أبي الرجال الكاتب ومدحه. ألف له كتاب العمدة في محاسن الشعر ونقده وآدابه. وقد ولاه علي بن أبي الرجال شؤون الكتابة المتصلة بالجيش. وبقي ابن رشيق في القيروان إلى أن زحفت عليها بعض القبائل العربية القادمة من المشرق فغادرها إلى مدينة المهدية، حيث أقام فترة في كنف أميرها تميم بن المعز، ولكنه ما لبث أن ترك المهدية إلى جزيرة صقلية، حيث أقام بمدينة مازر إلى أن وافته منيته .

قال قصيدة مشهرة في سقوط القيروان على يد بني هلال سنة 449 هـ يقارن فيها بين حالة المدينة قبل الاعتداء وبعد الغزو، فقد كانت القيروان في أجمل صورها وأبهاها وانقلبت إلى خراب ودمار، وتعد هذه القصيدة من أروع قصائد رثاء المدن في تاريخ الشعر العربي، وفيها قال:

بِيضِ كلْوُجوهِ شَوامِخِ كلإيمانِ كَمْ كانَ فيها منْ كِرامٍ سادةٍ

والتُّقى لله في كلإِسْرارِ وَكلإِعْلانِ مُتَعاونينَ على الدِّيانةِ

لِنَوَالِهِ وَلِعرْضِهَ صَوَّانِ وَمُهَذَّبٍ جَمّ كلفَضائِلِ باذِلٍ

سُنَنَ الحَديثِ وَمُشكِلَ القُرآنِ وَأَئِمَّةٍ جَمَعُوا العُلومَ وَهَذَّبُوا

كَلْعَمَى بِفَقاهةٍ وَفَصاحَةٍ وَبَيانِ عُلَماءَ إِنْ سَاءَلْتَهُمْ كشَفُوا

أَبْوابُها وَتَنازَعَ كلْخَصْمانِ وَإِذا كلأمُورُ كسْتَبْهَمَتْ وَكسْتَغْلَقَتْ

بِدليلِ حَقٍّ واضِحِ كلبُرْهانِ حَلُّوا غَوامضَ كُلَّ أَمرٍ مُشكِلٍ

طَلَباً لِخَيْرِ مُعَرَّسٍ وَمغانِ هَجَروا كلمَضاجِعَ قانِتينَ لِرَبِّهِمْ

مُتَبَتِّلينَ تَبَتُّلَ الرُّهبانِ وَإِذا دَجا اللَّيْلُ البَهيمُ رَأَيتَهُمْ

بَيْنَ كلْحِسانِ كلْحُورِ وَكلْغِلْمانِ في جَنَّةِ كلْفِرْدَوْسِ أَكْرَمِ مَنْزِلٍ

نِعْمَ التِّجارَةُ طاعَةُ الرَّحْمَانِ تَجِرُوا بِها الفِردوسَ مِنْ أَرباحِهم

وَالعارِفينَ مَكايدَ الشَّيطانِ المُتَّقينَ كلله حَقَّ تُقاتِهِ

خُضُعَ الرِّقابِ نَواكِسَ كلأَذْقانِ وَتَرى جَبابِرَةَ كلمُلوكِ لَدَيْهِمُ

إلاَّ إِشارَةَ أَعيُنٍ وَبَنانِ لا يَستَطيعُونَ الكلام مَهابَةً

حَتَّى ضِراءُ كلأُسْدِ في كلْغِيلانِ خافُوا كلإِلهَ فَخافَهُمْ كُلُّ الْوَرَى

مُلْكِ وَهَيْبَةَ كُلِّ ذي سُلْطانِ تُنْسيكَ هَيْبَتُهُمْ شَماخَةَ كُلِّ ذي

كالشَّمْسِ لا تَخْفى بِكُلِّ مَكانِ أَحْلامُهُمْ تَزِنُ كلْجِبالَ وَفَضْلُهُمْ

وَدَنا كلقَضاءُ لِمُدَّةٍ وَأوَانِ حَتَّى إذا الأَقدارُ حُمَّ وُقُوعُها

وَأَرادَها كالنَّاطِحِ العِيدانِ أَهْدَتْ لَها فِتَناً كَلَيْلٍ مُظْلِمِ

ممَّنْ تَجَمَّعَ مِنْ بَني دَهْمانِ بِمَصائِبٍ مِنْ فادعٍ وأَشائِبِ

أَمنُوا عِقابَ اللهِ في رَمَضانِ فَتَكوا بأَمَّةِ أَحْمَدٍ أتُراهُمُ

ذِممَ الإلهِ وَلَم يَفُوا بِضَمانِ نَقَضُوا كلعُهُودَ كلمُبْرَماتِ وَأَخْفَرُوا

سَبْيَ كلْحَريمِ وَكَشْفَةَ النِّسْوانِ فاسْتَحْسنوا غَدْرَ كلْجِوارِ وَآثَرُوا

مُتَعَسِّفينَ كَوَامِنَ الأَضْغانِ سامُوهُمُ سُوءَ العَذابِ وَأَظْهَروا

أَيْدِي كلعُصاةِ بِذِلَّةٍ وَهَوانِ وَالمُسلِمونَ مُقَسَّمونَ تَنالُهُمْ

وَمُقَتَّلٍ ظُلْماً وَآخَرَ عانِ ما بَيْنَ مُضْطَرٍّ وَبَيْنَ مُعَذَّبِ

حَتَّى إذا سَئِمُوا مِنَ كلأَرْنانِ يَسْتَصْرِخُونَ فلا يُغاثُ صَريخُهُمْ

ما جَمَّعوا مِنْ صامتٍ وَصوانِ بادوا نُفُوسَهُمُ فَلَمَّا أَنْفَذُوا

وَطرائِفٍ وَذَخائِرٍ وَأَوانِ وَكسْتَخْلَصوا مِنْ جَوْهَرٍ وَمَلابسٍ

مِنْ خَوفِهِمْ وَمَصائبِ الأَلوانِ خَرَجُوا حُفاةً عائِذينَ بِرَبِّهِمْ